الطالبة: زيار فوزية

جامعة وهران ـ الجزائر

إذا كانت التداولية تهتم بدراسة اللغة في الاستعمال، ثم مدى تأثيره على المتلقي، فإن أغلب الدارسين والمشتغلين بتحليل النصوص والخطابات يشيرون إلى الطبيعة التداولية للخطاب الحجاجي، طالما أنه يسعى إلى التأثير على آراء وسلوكات المخاطَب، ومن ثم دفعه إلى القيام بعمل ما الأمر الذي يؤكد على حتمية دراسة الحجاج من الناحية التداولية، ذلك أنه يخضع لقواعد وشروط القبول والتلقي، تبرز فيه القصدية والتأثير.

وتتضح صلة الحجاج بالتداولية، حينما استعان هذا الأخير ببعض العناصر اللغوية داخل الأقوال، تسمح بإنشاء علاقات حجابية جديدة، كما تقوم بالربط بين متغيرات حجاجية، بين الحجة والنتيجة، أو بين مجموعة الحجج[1].

تقتضي دراسة الخطاب إذن الاهتمام بمستويين:

– مستوى خارجي يتمثل في النص ككل باعتباره كتلة حجاجية.

– مستوى داخلي يتجسد فيه الحجاج في الروابط، والاستعارات والأفعال الكلامية.

وهذا ما ستحاول هذه الدراسة الوقوف عليه في الخطاب الشعري، مادام مثل غيره من أنواع الخطابات، خاضعا لشروط وعوامل إنتاجه، يهدف إلى إقناع الآخرين وحملهم على اتخاذ قرارات حسب رغبة للمحاجج (الشاعر)، وفي النهاية إلزام المستمع ببعض الأفعال.

1– البعد الحجاجي للخطاب الشعري:

1–1– **الخطاب الشعري والحجاج:**

بما أن الحجاج نابع من اللغة، موجود في كل الخطابات على حد تعبير ديكروDucrot، فإن الخطاب الأدبي أيا كان جنسه شعرا أو نثرا يحتوي في بنيته شيئا من الحجاج، بما يحمله من قيم تداولية، "تتوفر في كل لحظة من لحظات اللغة"[2]. وهذا الطرح نجد له حضورا في إحدى تنويرات

حازم القرطاجني في معرض حديثه عن الشعر والخطابة، بوصفهما يشتركان "في إعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النفوس بمحل القبول لتتأثر بمقتضاه (...) فلذلك ساغ للشاعر أن يخطب لكن في الأقل من كلامه وللخطيب أن يشعر لكن في الأقل من كلامه"[3].

نفهم من ذلك أن الخطاب الشعري التخيلي قد يكون قولا حجاجيا ذا أبعاد تأثيرية ناهيك عن الجوانب الأدبية الفنية، وحينما تجتمع أساليب الإقناع والإمتاع[4] يزداد التأثير والإقناع، ما يمنح للخطاب قوة وفاعلية تجعله أكثر تأثيرا في المتلقي، وهذا الأخير أكثر قبولا وتصديقا للخطاب. وتتحقق هذه الفاعلية حينما يتمكن الشاعر من تغيير قناعات المتلقي وتحريك همته ودفعه إلى القيام بفعل ما، فالشعر وإن كان خطابا إبداعيا فنيا فإنه "من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكره إليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه بما يتضمن من حسن تخييل له ومحاكاة بمجموعة ذلك، وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب، فإنّ الاستغراب والتعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها وتأثرها"[5]، إذن يحقق المخاطب غاياته الإقناعية، حينما يختار الحجج المناسبة التي تلقى صدىً لدى المتلقي سواء كانت في قالب منطقي أو جمالي فني مادامت في النهاية ترمي إلى إحداث التأثير بواسطة الأفعال الكلامية.

فالشعر فعل قاصد، وتظهر قصديته في حمل المتلقي على فعل سلوك ما، وتحريك نفسه والتأثير فيه للقيام بعمل ما وهذا لا يتأتى إلا بما يتضمنه من قوة التخييل من صور بيانية، وقوة تأليف الحجج وصدقها، أي حينما يزاوج الشاعر بين أساليب الإقناع والإمتاع، فيغدو خطابه أكثر إقناعا بحسب ميولات المتلقين ومقاماتهم. ويمكن الانطلاق من أن النص الشعري حجاجي بالدرجة الأولى، وهذا نظرا لكونه خطابا متلفظا به يفترض متكلما ومستمعا، تتوافر فيه قصدية التأثير بوجه من الوجوه، لإيصال رسالة ترمي إلى تعديل موقف المتلقي أو تغييره في إطار وظيفة الحجاج الذي ينشده المتكلم الأمر الذي يدفعنا إلى طرح جملة من الأسئلة لعلّ أهمها:

كيف يبني الخطاب الشعري شكله الحجاجي؟، وكيف يمكن أن يكون حجاجيا بالدرجة الأولى؟. هل نلمس المقاربة الحجاجية في اللغة أم في طبيعة القائل والمقول؟.

يستدعي الحجاج عملية فرض مجموعة من المعطيات والنتائج الموجهة حواريا، لا تترك للمتلقي أي خيار سوى الإذعان، بل قد يصل إلى الاقتناع بفعل القراءة الواعية أو التلقي. ويضع من أولوياته الإجابة على عدة أسئلة حجاجية مهمة مثل: من يتكلم؟ وإلى من يتكلم؟ وماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ وكيف نتكلم بشيء ونريد قول شيء آخر؟.

والوظيفة الحجاجية باعتبارها إحدى أهم الوظائف اللسانية في العملية التواصلية، نجد لها حضورا في خطاب شاعرنا أحمد مطر، يسعى من خلالها إلى الدفاع عن حقوق المواطن العربي وفي مقدمتها، حرية الفكر والتعبير واستقلال الأوطان والكرامة، أدلته الأولى الشعر وحججه الواقع المعيش والتاريخ المنصرم وموقف الآخر، أما النتائج الحتمية المترتبة عنها، فتتمثل في تجديد العقل العربي ودخول الإنسان في عصر الحرية التي تكفل له حقوقه الكاملة، حينها تتجلّى إيحاءات عناوين بعض القصائد (التكفير والثورة)، (هذه الأرض لنا)، (سلاح بارد)، (الرماد والعواصف)، (حوار على باب المنفى).

لقد جسدت العملية الحجاجية الوظيفة الإقناعية للخطاب بفضل تراتبية الحجج، انطلاقا من مرجعيات ثقافية وفكرية متنوعة اجتماعية وتاريخية، أسهمت في تحقيق الملاءمة والانسجام بين بنية الخطاب والواقع الراهن، ما يدفعنا إلى الحديث عن الحجج في الديوان (لافتات2 1987).

2- استراتيجية التأثير:

يقتضي التواصل وجود طرفين هما المتكلم (المخاطِب) والمتلقي (المخاطَب)، يرمي أحدهما إلى تحقيق التأثير في الآخر، تبرز فيه الأدوات والآليات التي ينتقيها أحدهما ويوجهها إلى الآخر الذي يؤولها. قد تظهر بشكل واضح ومباشر، وقد لا تظهر، وعندها تكون ثاوية خلف معطيات سياقية، وافتراضات مسبقة وتلميحات يدركها المخاطِب أو يفترض وجودها فيبني كلامه عليها، ويصل إليها المتلقي بمعونة السياق والقرائن، ولتحقيق ذلك يتبنى المخاطِب طرقا ومبادئ معينة، تنعت بالاستراتيجيات، تجسدها كفاءته اللغوية.

يولي المخاطِب خطابه اهتماما بالغا ذلك أنه يرى فيه "الأداة الأقوى لإقناع حشود الجماهير والترويج لأفكاره والتحفيز لمشاريعه واكسابها المصداقية"[6]. فيجند لذلك كافة التقنيات والآليات

اللغوية لإقناع الآخر وجعله يفهم الرسالة، وبالتالي تغيير موقفه من الأشياء، ثم دفعه إلى اتخاذ رد فعل من الواقع كما هو شأن الشاعر أحمد مطر. ولتحقيق الفاعلية التأثيرية الإقناعية للغة يستعين بجملة من الاستراتيجيات تتنوع بين الصريح والضمني.

2-1- مبادئ التخاطب:

التزام المخاطب ببعض القوانين التي تجعل خطابه ممكننا وفعالا فمبادئ التخاطب الأربعة التي صاغها غرايسGrice، وطورها ديكرو Ducrot ونعتها بقوانين الخطاب، تسهم في عملية التخاطب، وتعطي للكلام بعدا تفاعليا طالما أنها تمنح للمتلقي فرصة لتأويل الخطاب لتصل به إلى تحديد المقاصد التي يرمي إليها المتكلم، تتيح له قول ما يريد دون أن يفصح بذلك، والمستمع يدرك ذلك بالاستناد إلى سياق الخطاب وما يتيحه من قدرات استنتاجيه، وتتمثل هذه المبادئ في:

أ - مبدأ الكم :

يتمثل في "إعطاء المخاطب للمتلقي القدر اللازم من المعلومات ليتحقق الخطاب"[7]، يهدف هذا المبدأ إلى أن يجعل المتكلم إسهامه في الخطاب بالقدر المطلوب حسب ما تمليه الحاجة، فلا يقدم معلومات أكثر مما يلزم، وفي المقابل ذلك يستفيد المتلقي ويثري معلوماته .

والخطاب المفيد هو ما يترتب عنه نتائج يستفيد منها المتلقي، وهذا ما أراد الشاعر الخوض فيه (الواقع الراهن العربي)، فالمتلقي يستفيد من الأخبار المدعومة بالحجج التي تجيب عن كافة تساؤلاته، وتحقق أفق انتظاراته خاصة أنه يرغب في معرفة هؤلاء الحكام الذين يتحدّث عنهم المخاطب ويحملهم مسؤولية تدهور أوضاع الشّعوب وتفاقمها، ويمكننا ملاحظة ذلك من خلال قصيدة مكسب شعبي حين قال[8]:

آبَارُنَا الشَّهِيدَهْ
تَنْزِفُ نارًا ودَمًا
للأمَمِ البَعِيدَة
ونَحْنُ في جِوارِهاَ
نُطعِم جُوعَ نارِهَا
لكنَّنَا نَجُوع

لقد رغب الشاعر في توضيح المأساة التي تعيشها الشعوب العربية مأساتهم في حكامهم، فبالرغم من غنى تلك البلدان إلا أنها تعاني الفقر والحرمان وفوق هذا تشترط أن تبقى خانعة وخاضعة لا تطالب بحقوقها وترضى بما يصيبها، والأدهى والأمر أن هؤلاء الحكام لا قرار لهم ولا مواقف، هم سادة على شعوبهم المستضعفة لكنهم خدم لغيرهم "أمريكا" يستعطفونها ويخدمونها على حساب شعوبهم الفقيرة التي تتجرع الألم والحرمان.

ب- مبدأ الصدق:

وينص هذا المبدأ على أن يكون المخاطب "صادقا فيما يذهب إليه، أي يتجنب الكذب، مقرا بالمعلومات التي يتلفظ بها"[9]، بمعنى أن يجعل مساهمته في الخطاب لائقة، وأن يقدم الحجج المقنعة والكافية، وأن لا يتحدث عما لا يملك عنه حججا وأدلة كافية ومقنعة، وصدق الخطابات يتمثل في قول الحقيقة كما يعتقدها المخاطب في إدراكه للواقع.

وتؤدي الاستعارات هذا الدور، إذ يقدمها المخاطِب للتدليل على صدق نواياه، وهذا ما أشار إليه كل من جورج لايكوف George lakoff ومارك جونسون Mark Johnson، حين قدما تصورا جديدا للاستعارة يجعلها مقبولة لدى المتلقي وأكثر تأثيرا وإقناعا مفاده أن قبول الاستعارة يتم باعتبار اقتضاءاتها الصادقة، وهذا الصدق لا يكون، إلا باعتبار الواقع الذي تحدده الاستعارة[10] ويتولى السياق الكشف عن ميزة الصدق. ويبرز هذا بشكل جلي في خطاب الشاعر أحمد مطر في قصيدة القضية[11]:

زَعَمُوا أنَّ لنَا
أرْضًا، وعرْضًا، وحَمِيَّه
وسُيوفًا لا تبْارِيهَا المَنِيَّه
زَعَمُوا...
فالأرضُ زَالَتْ
ودِمَاءُ العِرْضِ سَالَتْ
وَوُلاَّةُ الأمْرِ لا أمْرَ لُهُمْ
خَارِجَ نَصّ المَسْرحيَّة
كلُّهم راعٍ وَمسْؤُولٌ

عنِ التفْرِيطِ في حقَّ الرَّعيهْ!
وعن الإرهابِ والكَبْتِ
وتقطيعِ أيادِي النَّاسِ
منْ أجْلِ القَضِيَّهْ

لقد عبر الشاعر بصدق عن مأساة الشعوب العربية وكرامتها المهانة الضائعة فشبه كل ذلك بالمسرحية التي يشاهدها الجميع دون أن يحركوا ساكنا، يتضح صدق هذا الخطاب في كلمة مسرحية، التي دلت على حجم الأسى الذي تعانيه الشعوب. تتوزع فيها الأدوار على ولاة الأمر، تتحدد بحجم التنازلات المقدمة، والمؤامرات على شعوب مستضعفة ذنبها أن بعض حكامها دمى تتحرك بمنطق المساومة، يتفننون في لعب أدوار صممت لهم. بيّنت حجم التنازلات التي قدموها ليخسروا في النهاية أوطانهم وكرامتهم. لقد حددت هذه الاستعارة الواقع العربي بصدق وأبرزت حجم المأساة وعمقها، يوم فرط العرب في الأرض والعرض.

ج ـ مبدأ العلاقة:

يفترض هذا المبدأ " أن يكون الخطاب مناسبا للمقام"[12]، أي أن يجعل المخاطِب كلامه ملائما للمقام والواقع، يساعد المتلقي على تفادي الغموض وسوء الفهم، ويمكن توضيح ذلك من خلال قصيدة "شؤون داخلية"، حين وصف حال الأوطان العربية التي مزقت بعضها الفتن والقرارات الجائرة، ووحدتها الظروف والمصير المشترك، وأثقل كاهلها تكالب الأعداء وتربصهم بها. يقول في ذلك[13]:

وَطَنِي ثوبٌ مُرقَّع
كلُّ جزءٍ فيه مصنوعٌ بِمَصْنَع
وعَلَى الثَوبِ نقوشٌ دَمَويَّة
فرَّقتْ أشْكَالُهَا الأهْوَاء
لكنْ
وحَّدتْ مَا بيْنَهاَ نَفْسُ الهَويَّة
عفَّةٌ واسِعةٌ تَشْقى
وعهْرٌ يتمتَّعْ

فكلمة ثوب مرقع تدل على الوطن المشتت والمفرق شيعا وأهواء ما يوحي بالضعف والهوان. لقد حشد الشاعر الكثير من العبارات الصريحة، والإيحائية، بهدف إقامة علاقة تواصلية مع المتلقي في ظل الهم الواحد، والشكوى والتطلع إلى الأفضل، في ظل هرولة بعض الساسة نحو حضيرة التطبيع والتنازل. فالموقف الذي يعرضه يمكن تصوره ومعايشة مراراته "فلسطين، الجولان..." يرمي به إلى تحريك الآخرين لمشاركته الموقف الفكري والسياسي، بل لتعبئتهم.

د – مبدأ الكيف:

وينص على أن يكون "المخاطب واضحا متجنبا اللبس والغموض، متحليا بالإفصاح والإيضاح"[14]، بمعنى أن يكون كلامه واضحا لا لبس فيه، معتمدا كافة الحجج التي تسهم في توضيح المعنى وتقريبه إلى المتلقي، فلا يذكر إلا ما كان مؤمنا بصدقه، ومطابقا للواقع.

اتجه الشاعر إلى نوع من الترتيب بكيفية تفصح عما يريده، فالانهيار العربي والتنازل مظهر عام، اتخذه الشاعر مقدمات وصولا إلى الموضوع الذي تتضح بعض ملامحه وتستقر في النهاية في شكل نتيجة منطقية لهذه الانهزامية "التنازل المفضي إلى الهوان"، وانقلبت الأوضاع فإن كان بالأمس تحركهم النخوة والعزة والكبرياء، فإن ما هم عليه اليوم من هوان وذل عائد إلى ضعفهم وتخاذلهم ولعل ما يمثل كل ذلك قصيدة القضية، يقول[15]:

والقضيَّة

ساعَة الميلادِ، كانتْ بندقيَّة

ثم صارتْ وتدًا في خيمةٍ

أغرقهُ الزَّيتُ

فأضحى غُصنَ زيتونٍ

... وأمْسَى مزْهرِية

تُنْعشُ المائدةَ الخضْرَاء

صبحا وعشيَّهْ

في القصُورِ الملكيَّهْ !

*** * ***

ويقولون لي: اضحَكْ

حسَنا

ها إنَّني أضْحكُ منْ الشرَّ البَليَّه!

2-2- البعد التلميحي للخطاب:

تعد متضمنات القول* إحدى الاستراتيجيات المتبعة في الخطاب، قصد إخفاء المعنى الحقيقي تحت عبارات تفهم من سياق الكلام أو بحسب الاتفاق بين المتخاطبين، ويلجأ المخاطِب إلى هذه الإستراتيجية بهدف توجيه المتلقي إلى التفكير في شيء غير مصرح به، عليه إدراكه، ومثل هذه المظاهر تنعت بالافتراضات المسبقة présuppositions، والأقوال المتضررة sous – entendu تشكل جل المعطيات التي يمكن أن يحملها الكلام، ويتولى السياق إبرازها.

لجأ المخاطب في كثير من الأحيان إلى استخدام إستراتيجية التضمين بهدف تمرير خطابه إلى المتلقي لبلوغ غايات منشودة، منها تحسيسه بالوضع الذي يمر به، وكذا الدفع به إلى التغير. نلاحظ أن لمثل هذه الاستراتيجيات دورا بارزا وفعالا في تحقيق الفاعلية الحجاجية وتحريك همة المتلقي ودفعه إلى محاولة اتخاذ موقف فاعل. فالخطاب الشعري عبارة عن مجموعة من الأقوال ذات الأبعاد التلميحية تظهر في شكل افتراضات مسبقة وأقوال مضمرة، وسمحت لنا قراءتنا لنصوص المدونة من اختيار بعض القصائد التي تظهر فيها هذه الاستراتيجيات.

ارتبطت هذه النصوص بقضايا سياسية تعكس التوجه الإيديولوجي للشاعر أحمد مطر، المعروف بالتزامه بالدفاع عن قضايا الوطن وثورته على الأنظمة الحاكمة في بعض البلدان المعروفة بفساد أنظمتها وحكامها. إذ نعثر في قصيدة "صندوق العجائب" على استعمالات خاصة لبعض الرموز التي تشير إلى طبيعة الحاكم المستبد المستلَب الذي لا قرار له، يقول[16]:

في صِغَري

فتَحْتُ صندوقَ اللُّعبْ

أخرجتُ كرسيًا موشَى بالذَّهبْ

قامتْ عليهِ دُميَةٌ منَ الخشبْ

في يدهَا سيْفُ قَصبْ
خفَّضتُ رأْس َدميتي
رفعتُ رأس َدميتي
خَلعْتهَا
نَصَّبتُهاَ
خلَعتُهاَ ... نصَّبتُهاَ
حتىَّ شعرتُ بالتَّعبْ
فما اشتكتْ منْ اختلافِ رغبتِي
ولا أحسَّتْ بالغضبْ
ومثلُهَا الكرسيُّ تحتَ راحتي
مزوقٌ بالمجْدِ ... وهوَ مُسْتلبْ
فإِنْ نصَّبتَه ُانْتَصَبْ
وإِنْ قَلبتَهُ انْقَلَبْ

فالدمى رمز للحكام الذين تعبث بهم أياد أجنبية تنصبهم ساعة تشاء وتخلعهم ساعة تشاء لا سلطة لهم، وهي حجة قوية للدلالة على طبيعة الصراع على الحكم الذي لا يشكل فيه الشعب مصدر السلطة وشرعيتها. وصدق الشاعر أحمد مطرحينما صور هذا الواقع أحسن تصوير في قوله[17]:

الصَّناديقُ التي غصَّ بها البَحْرُ
صناديقٌ على بقعةِ زيتٍ تتَقَلقَلْ
كُلُّ صندوقٍ به تيْسٌ مُعقَّل
ماله من أمره- وهوَ وليُّ الأمْرِ- شيْءٌ
فبأَمرِ الموجةِ الزَّرقاءِ يأْتي
وبأمرِ الموجةِ الزَّرقاءِ يَرْحَلْ

لجأ الشاعر لتعرية الواقع إلى استخدام أسلوب المفارقة ليثير ويصدم أفكار ومعتقدات المتلقي، ويشوش رأيه الخاص، واضعا القيم والحقائق موضع تصادم وتفارق[18]، لدفعه إلى إعادة التفكير وترتيب الأفكار والقضايا التي يتيحها الاستدلال الحجاجي كما في قوله السابق:

مَالهُ منْ أمْرِهِ - وهُوَ وليُّ الأمرِ - شيْءٌ

فالحاكم - ولي الأمر - في التقليد السياسي، يقوم بتدبير وتسيير الشأن العام، وتنظيم العلاقات بين الجماعات والأفراد، لكن كيف يمكن أن يكون حاكما للشعب يأتمر بأمره، وهو لا سلطة له ولا قرار، والأدهى من ذلك أنه لا يملك من أمره شيئا، لا قدرة له على اتخاذ قرار يخصه فكيف به أن يسير أمور الرعية ويتخذ كافة القرارات الشرعية؟.

وتكمن المفارقة هنا في أن مثل هؤلاء الحكام لم يصلوا إلى سدة الحكم باختيار الشعوب لهم، يمثلون الخصم لا الحكم، وبالتالي هي دعوة بطريقة غير مباشرة إلى التفكير في طرق مثلى لاختيار ممثلي الشعب ممن لهم القدرة على تدبير مصالحهم. مما يجعلها تؤدي مجموعة من الوظائف داخل القول الحجاجي، بهدف الإقناع وإثارة المتلقي ضمنها المخاطِب في كلامه من خلال الرمز والمجاز، إذ يعتبر التلميح أبلغ من التصريح وأكثر تأثيرا، وهنا يحضرنا قول عبد القاهر الجرجاني عن فضل ومزية الصور البلاغية ودورها في الإقناع، حين قال "قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح والتعريض أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزية وفضلا، وأن المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة. إلا أن ذلك وإن كان معلوما على الجملة فإنه لا تطمئن نفس العاقل في كل ما يطلب العلم به حتى يبلغ فيه غايته"[19]. لقد تنبه الجرجاني إلى دور الصور البلاغية في الفهم والإقناع ونفى عنها صفة الزخرف وأنها تأتي لتزين الكلام، وأعطاها بعدا تداوليا يمنح القول قوة حجاجية ويجعله أكثر قبولا واستحسانا من لدن المتلقي وبالتالي أكثر تأثيرا.

وفي الأخير لا بأس من الإشارة إلى بعض الافتراضات المسبقة والأقوال المضمرة، التي نجد لها حضورا مكثفا في الخطاب، يرمي من وراءها إلى التأثير في المتلقي ودفعة إلى مشاطرته الرأي واتخاذ موقف ما، مثل: الكرسي، الدمى، القافلة، الكلب الماكر، علبة الكبريت، أعواد الثقاب، حمير الوحش، الحمير الخادمة...

3- الأفعال الكلامية في عالم الخطاب:

تعتبر الأفعال الكلامية مؤسسة للخطاب، بل يمكن اعتبار الخطاب فعلا كلاميا كليا، كالأمر، والنهي، والاستفهام، تؤدي وظيفة جوهرية إنها فعل التأثير في المخاطَب ودفعه إلى اتخاذ قرار ما، وتغيير معتقداته وجعله يتبنى موقفا فعالا، وهو ما يحاول الوصول إليه، فعل التأثير على المخاطَب، وطلب الاستجابة لندائه، والمشاركة في القضايا المطروحة وتحمل المسؤولية ونستدل على مثل هذه الأفعال بما سماه سورلSearle التوجيهات directifs وهي كثيرة في الخطاب، تهدف إلى تفعيل العملية الحجاجية.

والحجاج بالأفعال الكلامية، إنما يكمن في تلك المستلزمات الخطابية التي تؤول وتحدد من السياق، تترك للمخاطب فرصة التفكير، ما يعني أنه ليس خطابا مفروضا على العقل والوجدان[20]، ثم إن الآليات الاستدلالية التي ينطوي عليها الخطاب هي في جوهرها تقنيات حجاجية.

والمدونة التي بين أيدينا حافلة بالأفعال الكلامية، بوصفها على حد تعبير الباحث مسعود صحراوي "نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري"[21] كالطلب والأمر والوعد، والنهي وتتمثل في:

أ- الأفعال التقريرية الواصفة constatifs

اكتفى فيها المخاطِب (الشاعر)، ببيان وعرض مجموعة حقائق، ونقل خبرات خارجية دون إبداء مواقف صريحة، وإن كانت تتشكل وتتضح أكثر في آخر القصيدة كقوله[22]:

أَنَا لسْتُ إلاَّ شَاعراً
أَبْصَرْتُ نارَ العَارِ
ناشِبَةً بأَرْدِيَة الغُفَاة

وقد تراوحت الأفعال بين الإثباتات الصريحة، والإثباتات المشوبة بالمجاز في الكثير من المقاطع كقوله[23]:

آبَاؤُنَا الشَّهيدَة
تنْزِفُ نارًا ودمًا
للأمِ البعيدَة
ونحْنُ في جِوارِهَا

نُطعِمُ جُوعَ نارهَا
لكنَّنَا نجُوعْ!

أضاف ضمير الملكية للجمع ليدل على اشتراك الجميع في المصلحة، ثم أضاف ضمير المتكلم ليضفي على الكلام صفة المباشرة وكذلك ليصبغه بروح المسؤولية التي يتحملها الجميع، ثم يختم كلامه بإيراد الطباق الذي جاء في شكل مقارنة يدفع المتلقي لوحده للتمييز بين الحالين، وكأنه بأسلوب الطباق "نطعم، نجوع" يحمله مسؤولية الاختيار. ترمي هذه الأبيات في مجملها إلى تحقيق العملية التواصلية بين الذوات المتخاطبة ما يشكل عامل إقناع وتأثير بالنسبة للمتلقي.

ب- الأفعال الإنجازية:

وهي التي "يقترن فيها المضمون بالأداء، أو ما نقوم به على سبيل التحقيق أثناء تأديتنا لعملية التمفصل اللغوي"[24]، وظهرت في الخطاب في شكل، أفعال غير مباشرة، ما يدلنا على أن المخاطب قد تصرف بحذر، خصوصا إذا تعلق الأمر بقضايا سياسة شائكة، تتوقف دلالتها على المقام الذي تندرج فيه.

- الاستفهام:

يعني في الأصل نوعا من الطلب يتعلق بحالة معينة للمخاطِب لجهله بأمر فيريد تحصيل العلم به، ويعد من أنجع أنواع الأفعال اللغوية حجاجا، إذ أن "طرح السؤال يمكن أن يضخم الاختلاف حول موضوع ما إذا كان المخاطب لا يشاطر المتكلم الإقرار بجواب، كما يمكن أن يلطف السؤال ما بين الطرفين من اختلاف"[25]. نفهم من ذلك أن السؤال يولد نقاشا ومن ثم حجاجا، فهو وسيلة لإثارة المتلقين ولفت انتباههم إلى موضوع ما، ثم دفعهم إلى القيام بعمل ما إذ يوجه المتكلم خطابه ليجعل المتلقي يصل لما يريده، ويكتسي الاستفهام طابعا حجاجيا حينما يكون بلاغيا، فهو في هذه الحالة أشد إقناعا للمتلقي، وأقوى حجة عليه، ذلك أنه حينما يخرج عن مقتضي الظاهر يصبح أكثر بلاغة وتأثيرا، وينطوي في بنيته على قوة حجاجية بالغة التأثير ومثل هذه الأفعال وردت بكثرة في الخطاب منها قول الشاعر[26]:

أيُّها اللَّصُّ الصَّغيرُ

يأكُلُ الشُرْطِيُّ والقَاضِي
عَلى مائدَة اللِّصِّ الكبيرِ فبماذا تسْتَجِير؟
ولِمَنْ تشْكُو؟
أ للقانون... والقانونُ معدومُ الضَّميرْ؟
أ إلى خفَّ بَعيرِ
تشْتَكِي ظُلمَ البَعيرِ؟

يحتوي الاستفهام على قوة حجاجية تجعل المتلقي يقر بصحة كلام المخاطب ويشاركه قناعاته، أي استحالة العدل وغيابه وبظلم وفساد بعض الحكام، إذ لا فائدة من أن تشكو وتبحث عن العدالة طالما أن حاميها متواطئ مع الظالم، وكيف تسترد حقك الضائع، والمشتكى له شريك للمشتكى منه، كيف ترى العدل وحاميه عديم الضمير، هو المسؤول عن ضياع الحقوق وغياب العدالة الاجتماعية. كما لجأ الشاعر إلى الفعل الكلامي غير المباشرة acte indirect الذي ظاهره استفهام، وباطنه السخرية والاستهزاء من الواقع كقوله[27]:

لكنَّ الحُكامَ لولاَيَ
وَلوْلاَ هذِه الأشعارُ ماذا يعْمَلوُن؟.
فإذا لمْ أكْتُبْ الشَّعرَ أنَا
كيْفَ يعيشُ المخْبِرُون؟
وإذا لم أشتُمِ الحكَّامَ
منْ يعتقلُون؟
وإذا لمْ أُعتقَلْ حياً
فمَنْ يَسْتَجْوِبُون؟
وبماذا يُطْلِقُ الصَّوتَ وكيلُ الادَّعاءِ؟
وبماذا يَا تُرَى
يعملُ أربابُ القضَاءِ؟
وعَلى منْ يحْكُمُون؟

وإذا لم يسْجُنُوني

فلمَنْ تفتحُ أبوابُ السُّجوُن؟

نجد الاستفهام في شكل حجاج يدعو فيه الحكام وأتباعهم في استهزاء وسخرية إلى التعقل والكف عن مطاردته والتضييق عليه والاعتذار له، ضمنها حججا بطريقة غير مباشرة، وهي دعوة إلى إعادة النظر في أفعالهم والكف عن مطاردة صوت الحق، في حين تعبر من جهة أخرى عن موقف الشاعر وتحديه لهم ورغبته في الاستمرار. وأما في قوله[28]:

حتىَّ متَى نلُفُ حَوْلَ قبْرِناَ؟

حتىَّ متىَ نَدُور؟

لا بُدَّ أنْ تنقطِعَ الشَّعْرَهْ

وتُكسَرَ الجَرَّة بالجَرَّهْ

ويُكْشَفَ المسْتوُرْ.

وكذا في قوله[29]: وماذا مِنْ وراءِ الصَّدقِ تنتظرُ؟

سيَأْكُلُ عمرَكَ المنْفَى

وتلقى القَهْرَ والعسَفَا

وترْقُبُ سَاعةَ الميلادِ يوميًّا

وفي الميلادِ تحْتَضَرُ

يتساءل إلى متى سيظل في حل وترحال مطاردا، إلى متى ستظل كلمة الحق مطاردة والتفكير جريمة، ورفض الظلم جنحة، يتساءل بمرارة عن الثمن الذي دفعه لرفضه الوضع ومطالبته بالعدالة. يتساءل متى ستعلو كلمة الحق ويهوي الباطل، متى تكسر الشعوب قيود القهر وتنفض الذل والهوان، وكل هذا يجعل المتلقي يقر بصحة الأمر ويشاطره الموقف.

فالفعل الحجاجي بهذا المعنى، ليس سوى نوع من الأفعال الإنجازية التي يحققها الفعل التلفظي في بعده الغرضي التأثيري، الأمر الذي يجسد السلطة المعنوية للفعل الكلامي ضمن سلسلة الأفعال المنجزة لتبليغ فكرة ما إلى المتلقي[30].

- **النفي:**

يعد أسلوب النفي وسيلة من وسائل الإقناع، طالما أنه لكل كلام قوة تأثيرية تكسبه قوة حجاجية. فالنفي "يدل على تعدد الأصوات، إذ يسمح للمتكلم بالتعبير المتزامن عن الصوتين المتقابلين، الصوت الذي يتبنى جانب الإثبات، وصوت المتكلم المتبني للنفي، فالنفي يشير إلى إثبات ضمني ويرد عليه"[31]. وفعلا نرى ذلك ماثلا في قول الشاعر[32]:

كَفَرْتُ بالأقلامِ والدَّفاتِرْ
كفَرْتُ بالفصْحَى التِي
تحْبلُ وهيَ عاقِرْ
كفَرتُ بالشَّعرِ الذي
لا يوقِفُ الظُّلمَ ولا يحرَّكُ الضَّمائرْ
لعنتُ كلَّ كلمَةٍ
لم تنْطلِقْ منْ بعدِهَا مَسِيرَهْ
ولم يخطُ الشَّعبُ في آثارِهَا مَصِيرَهْ
لعَنْتُ كلَّ شاعرٍ
يستلهِمُ الدَّمعةَ خمراً
والأسَى صبَابةً
والموتَ قشعريرَهْ.
ولا يَرَى فوهةَ بندقيةٍ
حين يرى الشَّفاهَ مُسْتجِيرهْ
ولا يرى مشنقةً
حين يرَى الضَّفيرة

يعرض الشاعر في قصيدته موقفين متصادمين، موقف المتخاذل الذي لا يحرك ساكنا يرى الظلم ولا يوقفه، وموقفه البطولي الذي يرمي إلى الدفاع عن حقوق الضعفاء وكرامتهم، ويتبرأ من كل شاعر متخاذل يعمى عن رؤية الحقيقة، وبدل أن يسخر شعره للدفاع عن قضايا الوطن، يطوعه

للقصائد الغزلية. وفي مقابل ذلك ينفي عن نفسه أن يكون أحد هؤلاء ويعرض موقفه المشرف لما يقف للدفاع عن الحرية والعدالة، يسخر الكلمة للنضال، محاولا إيقاف الظلم واجتثاث جذوره، مقاسما الشعوب مرارة الموقف، فهو يرى في الشعر وسيلة لإبداء كلمة الحق ووسيلة لتحريك الضمائر. فالنفي في هذا الإطار يعرض موقفين متباينين، موقف الشاعر المدافع عن الكرامة والحرية والشرف، وموقف الآخر المتخاذل والمتقاعس عن أداء الواجب وينفي بالتالي عن الشعر أن يكون مجرد كلام غراميات وغزل، وإنما يراه سلاحا فعالا للدفاع عن الحرية المستباحة ولرد الاعتبار.

ثانيا – آليات الإقناع في الخطاب الشعري:

إن الهدف الذي يقوم عليه الحجاج l'argumentation هو تحقيق الإقناع، ودفع المتلقي إلى التسليم بالنتائج، أو تبنيها واتخاذ موقف ما، بعد تسخيره لكافة الوسائل اللغوية التي تنم عن مهارة صاحبها وقدراته الحجاجية العالية في التأثير على المتلقي وكسب وده وتأييده.

فالفاعلية الحجاجية تنبني على حسن عرض المقدمات المفضية إلى النتائج الأكثر إقناعا، يصل إليها المتلقي بفعل امتلاكه لكفاءات وقدرات ذهنية تسمح له بتوظيف افتراضاته المسبقة عن الموضوع، وكذا معارفه، اعتمادا على قدراته الاستنتاجية.

كما يشترط على المخاطِب أن يحسن الربط بين المقدمات والنتائج ذلك أن "الربط بين القضايا إنما يتحدد بنوع من تجانس تعلق الأحداث مما تشير إليه تلك القضايا"[33]، وأن تكون هذه الحجج مناسبة لفحوى القول ومقصد المتكلم.

يتألف الخطاب الحجاجي في ديوان -أحمد مطر- من حجج متعددة ومتنوعة تكون صريحة أحيانا وظاهرة للعيان، وضمنية حينا آخر تتسم بالانفتاح، تهدف إلى إقناع أكبر عدد ممكن من المتلقين تتماسك هذه الحجج لتشكل في نهاية الأمر حجة كبرى، نلمسها بالقراءة المعمقة، هذا على المستوى الخارجي، أما على الصعيد الداخلي أي على مستوى العلاقات بين الحجج، فيتم الأمر بالربط بين المقدمات والنتائج، بواسطة روابط تكون ظاهرة أو ضمنية، هذه الأخيرة يتولى السياق إبرازها، وبالتالي انسجام الحجج وتكاملها.

مراجع البحث وإحالاته

1 ـ ينظر، حول مفهوم الحجاج في الفلسفة، رويض محمد، مجلة فكر ونقد:
.net (n26 - 04 rueyd.htm)www.fikrwanakd.aljabriabed

2 ـ التفكير اللساني في الحضارة العربية، المسدي عبد السلام، الدار العربية للكتاب، ط2، 1982م، ص145.

3 ـ ينظر، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، القرطاجني حازم، تح: محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1986م، ص34.

4 ـ ينظر، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، عبد الرحمن طه، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2،2000م، ص38.

5 ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص71.

6 ـ ترجمة الوظيفة الحجاجية في الخطاب السياسي من منظور الاتجاه السوسيو لساني، بن ديمية كريمة، إشراف فرقاني جازية، جامعة وهران، رسالة ماجستير في الترجمة، 2006م، 2007م، ص105.

7 ـ ينظر، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، حمو ذهبية، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري تيزي وزو، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005م، ص173.

8 ـ ينظر، لافتات 2، الديوان، مطر أحمد، يوليو، تموز، لندن، ط1، 1987م، ص 18.

9 ـ لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، المرجع السابق، ص173.

10 ـ ينظر، الاستعارات التي نحيا بها، لايكوف جورج وجونسون مارك، تر عبد الحميد جحفة، دار توبقال للنشر، ط1، 1996م، ص160.

11 ـ الديوان، ص25.

12 ـ ينظر، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص173.

13 ـ الديوان، ص58.

14 ـ ينظر، المرجع السابق، ص 173.

15 ـ الديوان، ص 25.

*ـ وتشمل: أ- الافتراضات المسبقة présuppositions ذات طبيعة لسانية، يتم إدراكها بواسطة العلامات اللغوية التي يتضمنها القول"، ويصل المستمع إليها بعد تحويله الكلام إلى استفهام ونفي مثل:

1- **انقطع زيد عن التدخين**. بتحويله إلى الاستفهام يعطينا:

2- **هل انقطع زيد عن التدخين**. ثم نفيه:

3- **لم ينقطع زيد عن التدخين**. هذه الأقوال تظهر لنا أن زيدا كان يدخن.

ب- القول المضمر sous – entendu، تعرفه أركيوني بأنه "كل المعلومات التي يمكن للكلام أن يحتويها و لكن تحقيقها في الواقع رهن خصوصيات السياق". مثل: السماء تمطر، قد يعتقد المتلقي أن المتكلم يدعوه إلى: البقاء في بيته، أو الإسراع إلى عمله حتى لا يفوته موعد الحافلة، أو الانتظار والتريث حتى يتوقف المطر. ينظر، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، بلخير عمر، منشورات الاختلاف، ط1، 2003م، ص113-118.

16 ـ الديوان، ص03

17 ـ المصدر نفسه، ص 69 .

18 ـ ينظر، عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، عشير عبد السلام، إفريقيا الشرق، 2006م، ص189.

19 ـ دلائل الاعجاز، الجرجاني عبد القاهر، تح: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 1982م، ص55، 56.

20 ـ ينظر، الإقناع المنهج الأمثل للتواصل والحوار نماذج من القرآن والحديث، بلعلي آمنة، مجلة التراث العربي، دمشق، العدد89، مارس، 2003م، ص6.

21 ـ التداولية عند العلماء العرب، صحراوي مسعود، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2005م، ص 40.

22 ـ المرجع نفسه، ص 40.

23 ـ الديوان، ص12.

24 ـ المصدر نفسه، ص18.

25 ـ المقاربة التداولية، ص61.

26 ـ البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال مايير، القارصي محمد علي، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج من أرسطو إلى اليوم، كلية الآداب، منوبة، تونس، د.ت، ص399.

27 ـ الديوان، ص43.

28 ـ المصدر نفسه، ص24.

29 ـ الديوان، ص27

30 ـ ينظر، الخطاب الإشهاري والقيمة الحجاجية، ص Search www.google.com/4

31 ـ بلاغة الخطاب وعلم النص، فضل صلاح، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 164، أغسطس، 1992م، ص94.

32 ـ الديوان، ص5، 4.

33 ـ ينظر، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي، التداولي، فان ديك، تر عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب، 2000م، ص76.